الحلقة الأولى

العواد.. أول الرواد

obeikandl.com

كان طبيعياً أن يكون أول من يقفز لذاكرتي «محلياً» من نجوم ذلك القرن وشموسه.. هو الأديب المفكر.. والكاتب الشاعر.. أو الشاعر الكاتب: الأستاذ محمد حسن عواد، صاحب «ثالث» أول كتب النهضة الأدبية في بلادنا بعد أن انتهى العصران التركي بطوله والهاشمي بقصره.. لكن الكتابين الذين سبقاه بشهور قليلة وهما «أدب الحجاز» و«المعرض».. لم تكن لهما ذات القيمة الأدبية والفكرية والاجتماعية التي كانت لكتاب العواد، فقد كانا عبارة عن مجموعة من المقالات والقصائد الشعرية لعدد من الكتاب والشعراء الذين تنفسوا مع أوائل سنوات الملك عبدالعزيز.. تم جمعها ونشرها في هذين الكتابين، أما كتاب العواد: «خواطر مصرحة».. فقد كان شيئاً مختلفاً. كان كما قال الأديب الشيخ محمد علي مغربي **«مفاجأة مذهلة للناس.. فاستحق أن يدخل التاريخ إيذاناً بابتداء حركة التجديد في الأدب والفكر»**، ومع أن الكتاب كان أيضاً مجموعة من المقالات وإن لم يسبق نشرها.. إلا أنها - وهذا هو الأهم - كانت على غير ما عرف الناس وألفوا، فبدا الكتاب - بتلك المقالات - وكأنه صرخة مدوية في المجتمع وفي فكره وفي تقاليده وعاداته البالية وفي حذلقة المتحذلقين من أبنائه.

نعم.. كان الكتاب - في مجمله - دعوة صريحة جريئة للنهوض بالأمة.. والخروج بها من واقعها المتخلف إلى رحبات التطور والتقدم بمقياس ذلك الزمان، ولكن العواد لم ينس في خواطره الملتهبة تلك.. التعريض بكتّاب السجع والمحسنات، وبالشعراء الكلاسيكيين التقليديين.. الذين تخلو مقالاتهم من الفكر ونبضه، وقصائدهم.. من الشعر وإلهام إيحاءاته وصوره. لقد قال الأستاذ عزيز ضياء عنهم بعد ذلك بربع قرن.. «إن الأدباء في بلادنا ظلوا يمشون في اتجاه مضاد لحركة الزمن. فإذا كان العالم اليوم في النصف الثاني من القرن العشرين.. فإن أدباءنا قد بلغوا النصف الأول من القرن التاسع عشر»..!!

* * *

ومع أن الزمن الذي صدرت فيه تلك الخواطر المصرحة.. كان زمن جهل وتخلف، زمن يحجم فيه الآباء عن إدخال أبنائهم إلى المدارس.. أما قراءة الصحف - على قلتها وندرتها - فهي عمل سياسي هدام يستحق مرتكبه العقاب.. كما قال زميله وصنوه الأستاذ عزيز ضياء.. إلا أن الكتاب استنفر بطرحه وحدته وجرءته الكثير من المسؤولين وغيرهم.. حتى طالب البعض بمحاكمة كاتبه وسجنه أو نفيه، لكن الأمير فيصل الذي كان نائباً عن الملك في الحجاز آنذاك كان له رأي آخر، قوامه: إن الرأي لا يقابل إلا بالرأي.. والكلمة لا يرد عليها إلا بالكلمة.. والحجة لا تقارع إلا بالحجة، أما الكتاب والشعراء .. الذين استخف بهم فأسماهم بـ«الكويتب» و«الشويعر»، فقد حاضوا وخاض معهم معارك أدبية لا حصر لها.. كان أولها مع الشيخ الأديب عبدالقدوس الأنصاري، وكان ثانيها مع الشيخ الأديب أحمد عبدالغفور عطار، وقد رد عليهما

أحد مقالاته [illegible] (في [illegible] للبيضاني [illegible]
(السفالي [illegible])..!!

على أيه حال ظلت المعارك تشكل جزءاً من حياة العواد [illegible] امتداد سنواتها.. وربما كانت آخر معاركه هي تلك التي [illegible] مع الأستاذ عبدالعزيز الربيع حول (شوقي) وإمارته للشعر. إذ كان يقول - في تلك المعركة - بأن الشعر ليس «قرية» لها أمير.. ولا حارة لها «عمدة»...!!

* * *

كان (الشعر) في حياة الأستاذ العواد.. هو الركيزة والأساس، فالشعر عنده «روح متمرد عات، يأبى أن يسكن الخرائب البالية».. والشعر عنده «روح يهبط من السماء إلى الأرض».. والشعر عنده «قوة سحرية».. والشعر عنده «فجر، والفجر يبدد بأشعته الظلام إذا بزغ»، وقد بدأ كتابته.. قبل أن يبلغ الخامسة عشر من عمره أو دون ذلك، وكان من حسن الحظ أنه جمع شعر كل مرحلة من مراحل عمره على حدة، وأصدرها في دواوينه الأربعة الرئيسية.. فديوانه الأول «آماس وأطلاس» تضمن شعره من حين أن بدأ في كتابة الشعر إلى العشرين من عمره، وكان ديوانه الثاني «البراعم» يحمل بقية قصائد تلك المرحلة، وكان ديوانه الثالث «نحو كيان جديد» يحمل شعر الثلاثينات من العمر، وكان ديواناه الرابع والخامس «في الأفق الملتهب» و«رؤى أبولون» يحملان شعر الأربعينات إلى الستينات. لكن شعره كان أداة لإيصال فكره وآماله الوطنية وأحلامه السياسية.. بل وشكل في معركته الأدبية مع صديقه وتلميذه الشاعر حمزة شحاتة «كتيبة» من خمسمائة بيت هي قوام قصيدته الشهيرة: «الساحر العظيم.. أو يد الفن

تحطم الأصنام». فإذا كان الشعر عند المتلقين هو حديث القلب والعاطفة.. فهو عند العواد حديث العقل والفكر في المقام الأول، ولذلك قال عنه الأستاذ الآشي أول رئيس لتحرير صحيفة صوت الحجاز.. في مقدمته لـ (خواطر مصرحة) «إنه في نثره وشعره يفكر فيما يكتب.. لا كيف يكتب»!! ومع ذلك قال عنه صديقه الأديب الكبير والناقد الفنان الأستاذ عزيز ضياء: «لقد كان العواد أول شاعر.. يكتب شعراً يقرؤه ويحفظه الناس».!!

.. وأحسب أنه بقوله هذا.. كأنما كان يسترجع قصيدة العواد المدوية التي شق بها فضاءه الشعري في شرخ شبابه - فبراير ١٩٢٥م -، وهو يدافع عن (الملك) علي بن الحسين في حربه مع (ابن سعود) لـ (فك الحصار) عن جدة:

(حديثهم عن بأسنا يا حراب
وأذقهم نكالنا.. يا عذاب
وأمطريهم قذائفاً يا منا
طيد كأن الدخان منها سحابُ
واسحقي المارقين يا خير سيا
رات فتك حتى يذوب الإرهاب
واسحقي القوم بالقنابل سحقاً
بهذا الملعلع الغلاب

* * *

أيها المصلحون في الشرق مهلاً
أين إصلاحكم وأين الصواب
ضحك الغرب ملء شدقيه منا
واستخف الورى بنا واسترابوا

قد عرفنا الإصلاح من عهد عيسى
أنه ليس شأنه الإرهاب
نحن يا قومنا وأنتم سواء
ما لدينا للترهات حساب
نحن قوم نقدس الله والتو
حيد ما للإيمان فينا ارتياب)

.. والتي قرأها عليه - وعلى بقية زملائه - أستاذ مادة (الإنشاء العربي).. همساً في منزله، بعد أن جاء بها (البريد) إلى المدرسة منشورة في صحيفة (بريد الحجاز) التي كانت تصدر في (جدة) آنذاك.. لتبهره بمطلعها ومفرداتها وجرءتها.. ثم لتستقر في وجدان وعقل وذاكرة اليافع آنذاك (عزيز ضياء)..؟!

وإذا كان الشاعر النجدي محمد بن عبدالله البليهد.. قد رد عليها في ديوانه (ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام).. قائلاً:

(ما أصبتم وما لديكم صواب
بعدما نصّ في البريد كتاب
وانتبهنا لقولكم حين قلتم
حدثيهم عن بأسنا يا حراب
إن هرمتم على الحروب فإنّا
كلما طالت الحروب شباب
إن أردنا أتت إليكم سراعاً
من بني الحرب إذ يعاف الضرابُ
وملأنا الثغور جيشاً وخيلاً
ضامرات كأنهن الذئابُ

لم يصيحوا بساحة الحي إلا
أن تداعوا إلى الظلال وخابوا
علم الله أن فيكم رجالاً
إن دعاهم سفيه قوم أجابوا)

إلا أن «الخوف» من القصيدة نفسها.. أدخلها إلى سرداب اختفت بداخله، ولم يبق منها في ذاكرة الأجيال المتعاقبة إلا مطلعها عند أشجع أدباء وشعراء تلك المرحلة على وجل..؟!

لكن القصيدة التي دخلت السرداب.. إلى جانب (خواطره) المدوية.. جعلته يتقدم صفوف الشعراء والأدباء آنذاك، فكان طبيعياً أن يكون من بين (الثلاثة) الذين انتدبتهم وزارة المعارف - أيام وزيرها الأول (الأمير فهد بن عبدالعزيز) - لاستقبال الدكتور طه حسين رئيس اللجنة الثقافية التي شكلتها الجامعة العربية لزيارة دولها، والتعرف على أوضاعها الثقافية.. بهدف صياغة برامج ثقافية عربية مشتركة تضاعف من لحمة شعوبها الأول (سوريا وشرق الأردن والعراق والمملكة العربية السعودية ولبنان ومصر واليمن)، فكان أن تناقل شهود تلك الزيارة التاريخية ما حدث بعد أن فرغ الدكتور من(عمرته).. واختلى لأول مرة بأدباء الحجاز.. فهاله صمتهم، ليقول الدكتور طه بلغته العربية الفخمة: (أتهابونني)..؟!

فرد الأستاذ الفدا عليه قائلاً: هيبة العلم يا دكتور!! ثم أضاف قائلاً: رغم أن شاعرهم يقول:

(من هنا شع للحقيقة فجر. من قديم.. ومن هنا يتجدد)، ليطرب الدكتور طه.. قائلاً:

إن هذا هو الشعر، فينتشي قائله (الأستاذ العواد).. وتنفتح أبواب الحديث.

* * *

فـ (العواد) شاعراً.. لم يترك قضية من قضايا الوطن والإنسان.. إلا وعبر عنها شعراً موزوناً مقفى أو شعراً حراً، فقد كان رائده الأول والسباق به في جزيرة العرب.. قبل أن يُعرف هذا الشعر على مستوى العالم العربي مقروناً باسم الشاعرة العراقية الشهيرة نازك الملائكة، فقد حرمته طبيعة المكان.. آنذاك، من الذيوع والانتشار على المستوى العربي..!!

لكن ومع شعره الفكري الأوضح والأعلى نبرة.. إلا أن دواوينه لم يختف منها ذلك الشعر الذي يخاطب القلوب والوجدان، كقوله في قصيدة «في أعقاب الهوى»:

ألهبتك النار من وقدة إحساسي
.. على ساحة قلبك
وتداعت لأغانيك عذارى البحر
.. يحلمن بقربك
فتبناك «كيوبيد»..
.. وقد روّع من ثورة حبك
وتهاوت أنجم الليل تدانيك
.. لكي تحيا بقربك

لكن شعره الروحاني.. فاض في ديوانيه الأخيرين.. بتلك القصائد الدينية والفلسفية الرائعة، كقصيدة «صلاة نفس» أو قصيدة «دافق النور رحمة وسلاماً».. التي يقول فيها:

قد أفاق بنو الأرض من السكر حين عافوا الخمارا
ولسرعان ما يفيق السكارى

ولسرعان ما يثوب الحيارى
وإذا العزم في المفاصل ثارا
قلَبَ الليلُ في الأنام نهارا
وأحال التراب والنقع نارا
وأثار الشرار يتلو الشرارا
فلكاً من نهوضه.. دوارا
وعباباً من الهوى، موارا
يخلق المؤمنين والأحرارا

دعوني بعد هذا أتوقف معكم عند رائعته: قصيدة «الغار».. أو ملحمة «الغار»، التي يبدأها قائلاً:

في ذات أمسية لئيمة
إبليس أودعها سمومه
جمعت قريش أمرها - لا حبذا هي من سخيمة
فتجمهرت للكيد، والشيطان يلهمها علومه
فكأنما هو مأتم دامٍ ومعركة أثيمة

* * *

ومضى النبي إلى أبي بكر، لتدبير الرحيل
وبدت لرأي الصاحبين فداحة الأمر الجليل
فتوجها للغار يختفيان عن نظر الرعيل
ومشى النبيل المطمئن على هدى سنن السبيل
وتعاظم الصدِّيق - أول أمره - هول المكان
إذ راعه شبح الجهامة فيه من أثر الزمان
حيث العناكب قد نسجن.. وحيث مأوى الأفعوان
فتقدم المختار يسبقه لطمأنة الجنان

ولشد ما أتت السكينةُ فاستحال الغار أفقا
وتبدلت أمناً، مخافة من تجهمه.. فرقا

* * *

ورأى السماء تكاد تحتضن الثرى حدباً ورفقا
وقالوا إذن فرَّ ابن آمنة ليثرب دون شكّ
وسيفعل القرآن بعد فراره في كل مكّي
وسينبري نحو الشمال بدعوة الإسلام يذكي
وسيصبأ العرب الغداة.. وهذه الأصنام تبكي

* * *

وتدخل القدر العظيم لينفذ المرسوم حتما
فأزاغ أعينهم من المتسترين، وأعمى
وأضلهم نسيج العناكب من الممر يثير وهما
والبيض في وكر الحمائم فوق باب الغار أوما
فتراجعوا نحو الوراء
ويمموا شطر الفضاء
والصاحبان على مدى شبر وقد سمعا النجاء
وكذلك ترتفع العقيدة، والمبادئ، والسماء
ولله في نصر الرسالة - بعد - يفعل ما يشاء

لقد أشعل العواد بامتداد سنوات حياته الثمانين.. شموعاً بعد شموع، وكان الرائد الحق لحرية الفكر والتعبير، ليقول قبل رحيله «إن الولادة الثالثة لأصحاب الرسالات تبدأ في اللحظة التي يغادرون فيها هذا العالم إلى عالم الرفيق الأعلى».. وقد بدأت ولادته الثالثة فعلاً مع رحيله..!!